

الجغرافيا محل جدل :

حروب ثقافية ، تصادمات شخصية ومشاركة في النقاش جيل فالنتين و ستيوارت آيتكين

ترجمة بتصرف
أ.د. مضر خليل عمر

"الجغرافيا مؤسسة اجتماعية - فهي من صنع البشر في سياقات اجتماعية - وبذلك ، فإن طبيعتها ستظل محل جدل دائم" (تايلور وأوفرتون، 1991: 1089). في هذا الكتاب ، ركز مؤلفو كل فصل على طرق تفكير متنوعة حول ماهية المعرفة الجغرافية ، والأساليب التي ينبغي استخدامها لجمع البيانات ، والبعد السياسي والغرض من هذه الجهود . وقد تطرقت الفصول ، إما بشكل ضمني أو صريح ، إلى النزاعات بين هذه الطرق من حيث الفكر والممارسة الجغرافية ، وتداعياتها على اتجاه ونوعية هذا المجال . كما يقول نيل سميث : "إن تاريخ الجغرافيا ليس مجرد تطور مع مرور الزمن ، بل هو نتاج عملية بناء نشطة ، نتيجة صراع . هناك صراع حول الأفكار التي تفسر الماضي بشكل أفضل ، وصراع حول المفاهيم المناسبة للأبحاث الحالية ، وبقدر ما يُطلب من البحث العلمي أن يكون له أهمية اجتماعية ، هناك صراع حول كيفية تشكيل الجغرافيا التاريخية للمظاهر الطبيعية المعاصرة" (1988: 160) .

يقدم هذا الفصل بعض الأمثلة على طبيعة الجغرافيا التي تُعد محل جدل . يُنسب إلى هنري كيسنجر قوله إن المناقشات بين الأكاديميين هي الأكثر حدة لأنها لا تتعلق بأمور جوهرية . هذا التصريح مثير للجدل كما هو الحال مع وزير الخارجية الأمريكي السابق نفسه ، الذي يُمدح من بعضهم لجهوده في تحقيق السلام ، بينما يُتهم من آخرين بارتكاب جرائم حرب . **صحيح أن المناقشات الجغرافية قد تكون حادة ، لكن طبيعة القضايا محل النقاش مهمة لأنها ليست تافهة** . يختار هذا الفصل ثلاثة أمثلة : نزاعات حول الفلسفة والأهمية ؛ نزاعات حول المؤسسات والأفراد والعلوم ؛ ونزاعات حول الفلسفة والمنهجية - لإظهار بعض جوانب النقاش حول الجغرافيا . ما هو على المحك هنا هو كيفية نظر علماء الجغرافيا إلى العالم وممارستهم في البحث العلمي . مناوشات حول الفلسفة وأهمية العلم الجغرافي .

أول مثال لنا على هذه المناوشات في مجال الجغرافيا كان في صفحات مجلة "التقدم في الجغرافيا البشرية". في عام 2001 ، انتقد الجغرافي رون مارتن فشل علم الجغرافيا في المملكة المتحدة في المساهمة الفعالة في صياغة السياسات العامة ، وذلك في وقت كان فيه هذا المجال قيد إعادة النظر والتطوير . وفي هذا السياق ، قارن مارتن علم الجغرافيا بمجالات أخرى ، كعلم الاجتماع ، الذي يُعد أنطوني جيدنز أحد أبرز رواده ، والذي غالباً ما يُستشار من قبل رئيس الوزراء في وضع السياسات . وأرجع مارتن سبب هذا الفشل إلى التأثير السلبي لفلسفة ما بعد الحداثة والاتجاه الثقافي في الجغرافيا البشرية في الدول الناطقة بالإنجليزية . ولتوضيح هذا الأمر ، استذكر مارتن إصدار كتاب ديفيد هارفي "العدالة الاجتماعية والمدينة" عام 1973 ، مشيراً إلى أن... هذا النقد الماركسي للنظام الرأسمالي ، على الرغم من كونه نظرياً في الغالب ، حفز روح الالتزام الاجتماعي والمشاركة السياسية داخل هذا المجال (ينظر أيضاً الفصل 25) . في أواخر السبعينيات ، ومع تراجع الاقتصاد الكينزي ما بعد الحرب العالمية الثانية ونموذج تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية ، سُنحت للجغرافيين فرصة المشاركة في النقاش السياسي حول سبل جديدة للمستقبل ، أو التحدي لسياسات الليبرالية الجديدة التي تبنتها ثاتشر في بريطانيا ورئيس الولايات المتحدة ريغان . بدلاً من تبني نهج عملي - باستثناء بعض الجيغرافيين الذين واصلوا محاولاتهم للمساهمة في صياغة السياسات . يرى مارتن

(2001: 192) أن هذا المجال فقد أهميته ، وتفرّق إلى تيارات ما بعد الراديكالية وما بعد الماركسية ، مثل الجغرافيا الإنسانية النقدية ، والنقاش النسوي ، وما بعد الحداثة ، إلخ . وخلص إلى أن التركيز الحالي على الاختلاف والخصوصية (يانظر الفصلين 10 و 12) أدى إلى تشتت المشروع السياسي للجغرافيا ، والانحراف عن قضايا أوسع نطاقاً مثل العدالة الاجتماعية .

وصف مارتن هذه التيارات بأنها مشغولة بالمسائل النظرية واللغوية ، وفقدت روح النقد . كما انتقد تحوّل الجغرافيا الإنسانية عن البحث الميداني الدقيق ، والتركيز على النظرية المعقدة بدلاً من استخدام لغة واضحة للتواصل مع الحكومة . ويرى مارتن أن الجغرافيين أصبحوا متجاهلين للعمل في مجال السياسات ، واصفين إياه بأنه غير نظري و وصفي ، مشككين في استقلالية أو نزاهة من يمارسونه . دعا مارتن إلى "تغيير نهج" هذا المجال ، مشيراً إلى أنه : "علينا أن نخفف من حماسنا للبحث عن أحدث الموضوعات الفلسفية أو النظرية أو المنهجية ، وأن نولي اهتماماً أكبر للبحث الاجتماعي التطبيقي ، وكجزء من هذا التوجه ، يجب منح دراسات السياسات مكانتها الأكاديمية الصحيحة..."

يجب أن نولي اهتماماً أكبر بالعمل الميداني الدقيق : يجب عكس اتجاه التوجه نحو البحث السطحي ، ووضع تركيز أكبر على المنهجية وجودة الأدلة . كما يجب على علماء الجغرافيا البشرية تحديد كيفية استخدام أبحاثهم ، وما هي الأهداف التي تسعى إليها : لا شك أن البحث المحايد أمر غير موجود ، ويجب أن نكون أكثر وضوحاً وتحديداً بشأن المواقف السياسية التي تؤثر في عملنا وتشكله ، مهما كانت هذه المواقف" . (2001: 202) وذهب إلى أبعد من ذلك ، مؤكداً أن **على علماء الجغرافيا واجب أخلاقي في تطبيق أبحاثهم لمصلحة المجتمع (مثلاً بتوضيح المشكلات المجتمعية) ، بدلاً من التركيز على مصالحهم الشخصية**. أثارت مقالة مارتن نقاشاً حاداً في مجلة "التقدم في الجغرافيا البشرية" . بينما نسب مارتن فشل الجغرافيا في التأثير على سياسات الحكومة إلى مشاكل فلسفية داخل هذا المجال ، رأت دورين ماسي (2001) أن السبب ، على الأقل جزئياً ، هو عدم رغبة الحكومة في الاستماع إلى الآراء الجذرية التي يقدمها علماء الجغرافيا .

حذرت ماسي من مخاطر التخلي عن النظرية في محاولة للتواصل مع صناع القرار ، أو فصل النظرية عن التطبيق ، مشيرة إلى ضرورة أن يقدم علماء الجغرافيا أفكارهم النظرية بطريقة أكثر وضوحاً . كما أشارت إلى ضرورة أن يساهم علماء الجغرافيا بمساهماتهم النظرية الخاصة في النقاش ، بدلاً من الاقتباس من مجالات أخرى ، داعية إلى حوار بناء بين الجغرافيا البشرية والجغرافيا الطبيعية . وأكدت أيضاً على **ضرورة تغيير صورة الجغرافيا كعلم ممل يرتبط فقط بالخرائط والمواقع الجغرافية (2001: 13)**. بينما ردت ماسي على مارتن بأسلوب لبق ، اتخذ دورلينغ وشاو (2002) نهجاً أكثر عدوانية ، مُنتقدين حجج مارتن وماسي بأسلوب حاد . ووجهوا انتقاداتهم بشكل خاص إلى مارتن وماسي لتركيزهما على الجغرافيا ، مُجادلين بأن السبب في بقاء عدم المساواة الإقليمية على جدول أعمال السياسات بعد 25 عامًا هو أن علماء الجغرافيا قضوا وقتاً طويلاً في النقاش بين بعضهم البعض في المجلات الأكاديمية ، بدلاً من الانخراط في قضايا خارج نطاق تخصصهم .

وأشاروا إلى أن معظم علماء الجغرافيا "يهتمون بدراسة العلاقات المكانية (فهمها وتفسيرها) ، وليس بتغييرها ، وهذا هو السبب في كونهم علماء جغرافيا" (2002: 632). ثم استمر دورلينغ وشاو في التأكيد على أنه إذا أراد علماء الجغرافيا التأثير على السياسات ، بدلاً من انتظار تغيير في نهج السياسة داخل المجال ، فيجب عليهم **إعادة النظر في كيفية توصيل رسالتهم خارج نطاق تخصصهم** . هنا ، انتقدوا علماء الجغرافيا لتصوراتهم المجردة عن عدم المساواة الإقليمية والفجوة بين الشمال والجنوب ، مُجادلين بأن الحجج العملية القائمة على الأمثلة والأدلة الإحصائية أكثر إقناعاً . وبإبراز أهمية الأساليب الكمية (ينظر الفصل 22) "لإظهار

مدى أهمية الأمور" ، اتهم دورلينغ وشاو (2002: 633) علماء الجغرافيا النقدية بتجاهل آثار "القياس الكمي للسلطة". وكما فعل مارتن ، انتقدوا أيضاً المصطلحات النخبوية لنظريات ما بعد البنائية ، ودعوا علماء الجغرافيا إلى التعبير عن أفكارهم بشكل أكثر فعالية . وبناءً على كتاب عن الفقر وعدم المساواة والصحة (ديفي سميث وآخرون، 2001)، لاحظوا أنه من بين 30 مقالاً رئيسياً ، لم يكتب أي منها من قبل عالم جغرافيا.

وبشكل مثير للجدل ، اقترح أنه إذا أراد علماء الجغرافيا التأثير في صياغة السياسات ، فمن الأفضل لهم التوجه إلى تخصص آخر، مدعين أن علم الجغرافيا قد لا يكون مناسباً للتأثير السياسي ، ووصفوه بأنه "مخيم لاجئين أكاديمي - مكان يمكن للأكاديميين فيه العمل في أي مجال يرغبون فيه دون الحاجة إلى الالتزام بتقاليد التخصصات الأخرى" (2002: 638). وخلص دارلينغ وشاو إلى أنه إذا أراد علماء الجغرافيا أن يُحترموا خارج الأوساط الأكاديمية ، فيجب عليهم احترام من يشارك في نقاشات السياسات بدلاً من تجاهلهم لضعف نظرياتهم أو لعدم كونهم علماء جغرافيا حقيقيين .

منح مجلة "بروغريس إن هيومن جيوغرافيا" لـ مارتن وماسي حق الرد على هجوم دارلينغ وشاو . استغل مارتن (2002) هذه الفرصة ليوافق على انتقاد دارلينغ وشاو (2002) لماسي (2001)، بأن سبب عدم أهمية علم الجغرافيا ليس فشل السياسيين في الاستماع ، بل هو عدم استجابة علماء الجغرافيا لدعوات العمل في مجال السياسات أو عدم امتلاكهم أي شيء قيم أو مميز يقدمونه . كما أشار إلى فكرة أساسية في ورقة دارلينغ وشاو ، مؤكداً أن علم الجغرافيا يتبوأ مكانة ضعيفة أو متدنية في المجالات التعليمية والاجتماعية الأوسع ، مستغلاً الفرصة لانتقاد النظريات ما بعد البنائية وتوجه علم الجغرافيا نحو دراسات الثقافة والإعلام ، إلخ .

ردت ماسي على هذا الهجوم للدفاع عن نفسها ضد ما اعدته "سوء فهم مُصر (عمداً؟) [و] سلسلة من الإهانات (بلا داع)" (2002: 645) . وأشارت ماسي إلى مشاركتها في مجالات السياسات خارج الأوساط الأكاديمية ، مدعية أنه ليس من الضروري التخلي عن النظرية من أجل الانخراط في السياسة . بل إنها أشارت إلى أن المفتاح يكمن في استخدام لغة مناسبة للمخاطبين ، موضحة أن دورها لا يقتصر على ابتكار الأفكار ثم محاولة فرضها على السياسيين ، بل هو عبارة عن "تفاعل مستمر" مع صانعي السياسات والمجموعات المجتمعية في مختلف المنابر، حيث تقوم بالتدقيق في هذه التفاعلات ، والتفكير فيها ، والنقاش حولها، والكتابة عنها (2002: 645).

وبهذا ، انطلقت ماسي من أفكار دورلينغ وشاو... تم انتقادهم لتهجمهم في صياغة السياسات ، مدعين أن الأمر لا يقتصر على الفوز بعقود بحثية حكومية كبيرة وتقديم إجابات دقيقة من الناحية الفنية لأسئلة محددة مسبقاً من قبل الحكومة . بل اقترحوا أن العمل في مجال السياسات قد يشمل أيضاً التعاون مع الجماعات الناشطة أو محاولة التأثير على الرأي العام ، وأن على الأكاديميين مسؤولية فكرية تتمثل في المشاركة السياسية بشكل أعمق وأكثر تعقيداً والنقاش حول وجهات النظر المختلفة عن العالم . إلى جانب هذا الجدل في مجلة "التقدم في الجغرافيا البشرية" ، استمر النقاش حول أهمية علم الجغرافيا وعلاقته بالتيارات الفلسفية المختلفة. بالنسبة لنويل كاستري (2002)، إذا أراد علماء الجغرافيا إحداث فرق خارج نطاق الأوساط الأكاديمية ، فيجب عليهم أولاً إيلاء مزيد من الاهتمام للمؤسسات التي يعملون فيها - ما وصفه ويلز (1996) بـ "المؤسسات الأكاديمية الاستغلالية" أو ما وصفه سميث (2000) بـ "تأثير الشركات على الجامعات". في التركيز على الاقتصاد السياسي للتعليم العالي ، دافع كاستري (2002) عن الحاجة إلى مزيد من النشاط داخل الجامعات للتحدي والتغيير في ما يُعد نشاطاً أكاديمياً قيماً . بينما يرى ميتشل أن "لإحداث فرق خارج الأوساط

الأكاديمية ، من الضروري القيام بعمل جيد ومهم وملتزم داخل الأوساط الأكاديمية" (2004: 23). وقد أشار إلى مثال كارل ماركس الذي كان بحثه مدفوعاً بالالتزام بمشروع ثوري - فهم وتفسير كيفية عمل الرأسمالية وكيف يمكن تغييرها - مشيراً إلى أن هذا الالتزام هو ما جعل عمل ماركس ذا صلة بالآخرين خارج الأوساط الأكاديمية لأكثر من قرن ونصف .

جدالات حول المؤسسات والأفراد ودراسة علم الجغرافيا

على عكس المثال الأول الذي ركز على الجغرافيا المعاصرة في المملكة المتحدة، فإن المثال الثاني يتناول تاريخ إغلاق قسم الجغرافيا في إحدى أكثر جامعات أمريكا الشمالية شهرة . بعد توسع محدود بعد الحرب العالمية الثانية ، أغلق برنامج الجغرافيا في جامعة هارفارد فجأة في عام 1948 ، مما أثار جدلاً حول طبيعة ومستقبل علم الجغرافيا . كان إغلاق هذا القسم ذا أهمية رمزية كبيرة نظراً للمكانة المرموقة التي تتمتع بها جامعة هارفارد في النظام التعليمي في أمريكا الشمالية ، وقد زادت من أهميته تصريحات رئيس الجامعة التي أشارت إلى أن علم الجغرافيا ليس مجالاً دراسياً مناسباً في الجامعة .

وفي دراسة تاريخية لهذا الحدث ، خلص نيل سميث (1987) إلى أن تدهور قسم الجغرافيا في هارفارد كان مرتبطاً بشخصيات معينة . بدأت القصة بتناول : حيث سلط تقرير صادر خلال الحرب العالمية الثانية عن قسم الجغرافيا في هارفارد (الذي كان آنذاك جزءاً من قسم علوم الأرض) الضوء على نقص الخبراء في علم الجغرافيا اللازمين للعمليات الحربية ، وبالتالي أوصى بتوسيع القسم . استدعت هارفارد العديد من الباحثين الشباب الموهوبين في علم الجغرافيا . في عام 1947 ، أوصى أعضاء هيئة التدريس البارزين برقية ترقية أحدهم ، وهو أكرمان ، إلى عميد كلية الآداب والعلوم ، بول باك ، المسؤول الإداري المباشر عن قسم الجغرافيا .

إلا أن مارلاند بيلينغز ، أستاذ علم الجيولوجيا ورئيس قسم علوم الأرض الذي كان الجغرافيا تابعاً له ، لم يكن راضياً عن ذلك لأن أكرمان كان يعمل في الجيولوجيا والجغرافيا في آن واحد . فلو تم ترقية أكرمان إلى أستاذ مشارك في الجغرافيا ، لكان ذلك يعني فقدان قسم الجيولوجيا نصف منصبه . كان بيلينغز قلقاً من أن توسع قسم الجغرافيا يشكل تهديداً لقسم الجيولوجيا ، فاختار قضية ترقية أكرمان لشن هجوم على قسم الجغرافيا . و وفقاً لسميث ، سعى بيلينغز إلى إقناع بول باك بفصل قسمي الجغرافيا والجيولوجيا إدارياً لأنهما مختلفان تماماً . دعم رئيس قسم الجغرافيا ، ديرويانيت وبتليسي ، الفكرة ، مرحباً بفكرة استقلالية قسم الجغرافيا الناشئ .

بعد تحقيق هذا الهدف ، كتب بيلينغز إلى باك مؤكداً أن قسم علوم الأرض كان قد دعم ترقية أكرمان سابقاً بناءً على فهم خاطئ بأن القسم سيحصل على وظيفة جزئية في حال نجاح طلب أكرمان ليصبح باحثاً في الجغرافيا بدوام كامل . وادعى بيلينغز أن وظيفة جزئية في قسم علوم الأرض كانت أكثر قيمة للجامعة من تعيين جديد في قسم الجغرافيا ، مشككاً في أهمية الجغرافيا الإنسانية . تبادلت الأوراق والمستندات بين الأقسام . دافع وبتليسي وعدد من الأكاديميين البارزين الذين عملوا كمستشارين خارجيين مستقلين عن ترقية أكرمان ، كما أوصت لجنة مؤقتة خاصة بالجغرافيا ، والتي ضمت أعضاء من خارج الجامعة ، بترقية أكرمان أيضاً . لكن باك أصبح مقتنعاً بضرورة إغلاق قسم الجغرافيا . رفض إعادة تعيين أحد أعضاء هيئة التدريس الذين كانوا يدرسون العديد من المقررات الأساسية في القسم ، وأبلغ طلاب السنة الثانية أن عدد المقررات غير كافٍ للحصول على تخصص في الجغرافيا .

باستثناء وبتليسي ، تم فصل جميع أعضاء قسم الجغرافيا . على الرغم من التراجع المؤقت عن القرار وحشد الدعم للقسم داخل الحرم الجامعي ، تم إغلاق قسم الجغرافيا . في روايته لهذه القصة ، قال نيل سميث

(1987) إن هناك ثلاثة عوامل ساهمت في قرار إغلاق قسم الجغرافيا : (1) الأوضاع المالية الصعبة للجامعة؛ (2) فعالية قسم الجغرافيا في جامعة هارفارد؛ و(3) إمكانية أن يكون علم الجغرافيا تخصصاً جامعياً . لكن وراء الكواليس ، لعبت الشخصيات دوراً حاسماً . كان إيزايا بويمان ، عالم الجغرافيا البارز ورئيس جامعة جونز هوبكنز ، من الشخصيات الرئيسية ، والذي ساهم ، حسب سميث ، في إغلاق قسم الجغرافيا في هارفارد . وادعى سميث أنه على الرغم من دعم بويمان لعلم الجغرافيا كعلم ، إلا أنه لم يدعم قسم الجغرافيا في هارفارد بسبب نظرة سلبية شخصية لديه تجاه بعض أعضاء هيئة التدريس .

عد بويمان المثلية الجنسية لدى ويتليسي أمراً مرفوضاً . وبشكل خاص ، انتقد الطريقة التي عين بها ويتليسي كيمب ، الذي كان تربطه به علاقة رومانسية ، كمعلم للجغرافيا ، مشيراً إلى أن كيمب كان باحثاً متوسط المستوى ، ولن يكون قادراً على البقاء في جامعة هارفارد لولا رعاية ويتليسي . كما لم يكن راضياً عن ألكسندر هاميلتون رايس ، مدير معهد الاستكشاف الجغرافي في الجامعة . فوفقاً لسميث ، كان باومان ينظر إلى رايس كونه دجلاً اشترى منصب الأستاذية بفضل ثروة زوجته . إلا أن العامل الرئيسي في امتناع باومان عن دعم قسم الجغرافيا في هارفارد ، بحسب تحليل سميث (1987) ، هو ارتباط مشاعره الشخصية بمعارضته الفكرية لويتليسي .

فقد تلقى باومان تعليمه ضمن منهج ديفيس ، وكان يعد الجغرافيا الطبيعية أساس هذا المجال ، وبالتالي وضع الجغرافيا ضمن العلوم . وكان ينتقد الجغرافيا البشرية ، معداً إياها وصفية وسهلة ونقصانها في الطابع العلمي . كما تأثرت نظرة باومان إلى العلوم الاجتماعية سلبياً برابطتها بالفكر اليساري الراديكالي . لذا ، فإن ويتليسي ، الذي ينتمي إلى مدرسة شيكاغو ، والذي كان يؤمن بوجود مجموعة من المبادئ الفكرية التي يمكن أن تكون أساساً للجغرافيا البشرية ، جسد تحيزات باومان تجاه هذا المجال . ويجادل سميث بأن باومان سمح لمشاعره الشخصية أن تؤثر على حكمه بشأن مستقبل قسم الجغرافيا في هارفارد ، فامتنع عن دعمه رغم تشجيع شخصيات بارزة في هذا المجال له على ذلك . ويشير سميث أيضاً إلى أن باومان لم يكن متحمساً للجغرافيا في هارفارد لأنه شعر بالاحباط من ثراء الجامعة ونخبوية طلابها ، نظراً لكونه من خلفية اجتماعية متواضعة.

وبناءً على ذلك، استنتج سميث (1987) أنه في سياق الضعف المؤسسي الذي كان يعاني منه قسم الجغرافيا في جامعة هارفارد - حيث كان هذا القسم قد نشأ من قسم علوم الأرض، وكان عدد أعضاء هيئة التدريس فيه قليل، ولم يكن قد حدد بعد مجالاً معرفياً واضحاً أو حدوداً فاصلة بينه وبين التخصصات الأخرى - كان القسم عرضة للهجوم الذي شنته بيلينغز. وكان ويتليسي ضعيفاً سياسياً، ولم يكن لديه أي حلفاء في إدارة الجامعة أو بين أعضاء هيئة التدريس الرئيسيين ليقاوموا هذا الهجوم . وقد أثار تفسير سميث لانحسار دور الجغرافيا في هارفارد موجة من الردود من علماء الجغرافيا الآخرين الذين قدموا تفسيرات بديلة لما حدث . على سبيل المثال ، انتقد مارتن (1988) تفسير سميث ، وكان أكثر انتقاداً لدور ويتليسي، متهماً إياه بعدم تطوير برنامج جغرافيا قيماً في هارفارد (وهو ما يرتبط بتعيينه لـ كيمب بناءً على علاقته الشخصية به وليس كفاءته) ، وفشله في ترك بصمة في الجامعة ككل .

في المقابل ، كان مارتن أكثر تسامحاً مع بومان ، مشيراً إلى أنه لم يتدخل لأنه احترمت سلطة رئيس الجامعة ، فبعد أن اتخذ الرئيس قراره بإغلاق قسم الجغرافيا ، لم يحاول بومان إبطال هذا القرار ، ولم يرغب في الدخول في جدالات عامة غير لائقة حول هذا التخصص (على الرغم من أنه ذكر أنه بذل جهوداً في الخفاء للدفاع عن الجغرافيا كعلم) . بالنسبة لمارتن ، فإن تصرفات بومان كانت نابعة من عدم احترامه لـ ويتليسي ورايس ، حيث كان ينظر إليهما كضعفين ، مما يصور بومان على أنه صديق جيد للجغرافيا . أما كوهين (1988) فقد تبنى نهجاً مختلفاً ، مشيراً إلى أن ضعف قسم الجغرافيا كان يكمن في فشله في اتخاذ

موقف فعال منذ البداية . وأشار إلى **أن سمعة أي قسم تعتمد بشكل كبير على سمعة أعضاء هيئة التدريس فيه**، وبالتالي كان قسم الجغرافيا في هارفارد ضعيفاً لأنه كان يتألف من مدرسين ضعيفين (مثل كيمب) ممن يفتقرون إلى الكاريزما . وأشار أيضاً إلى **أن قسم الجغرافيا لم يعمل كفريق فعال أو متماسك** . بصفته مجتمعاً علمياً صغيراً ، لم تكن لدراسة الجغرافيا القدرة الكافية على أن تكون قوة مؤثرة داخل الجامعة أو لتكوين شبكة دعم فعالة في هذا المجال ، وكانت نقاط الضعف لدى الأفراد تبرز بشكل واضح .

انضم بيرغاردت (1988) إلى هذا النقاش ، مدافعاً عن ويتلسي وبومان . هاجم سميث (1987)، قائلاً : "لا شك أن ويتلسي وبومان لم يبذلا جهداً كافياً للدفاع عن هذا المجال . لكن هذا كان في وقت كانت فيه الجغرافيا البشرية في بداياتها . أعتقد أنه من غير اللائق أن ينتقد الجغرافيون المعاصرون ، بعد ثلاثين عاماً من النقاشات الحادة ، مؤسسي هذا المجال لافتقارهم إلى الرؤية الواسعة" (1988: 144) . دافع بعض المعلقين الآخرين عن وجهات نظر مختلفة ، وانتقدوا سميث (1987) لتعريضه لبعض جوانب الجغرافيا للجمهور . ردّاً على هذه التعليقات ، هاجم سميث (1988) من عدوا أن الجغرافيين لا ينبغي لهم انتقاد بعضهم علناً . انتقد ما وصفه بـ "التاريخ الأحادي" لهذا المجال الذي تجاهل الصراعات الفكرية والشخصية التي شكلته ، مشيراً إلى أن "أي مظاهر خارجية للوحدة والهدوء لا تخدع إلا الجغرافيين" (1988: 160).

خلافات حول الفلسفة والمنهجية

مثالنا الثالث على الخلافات المستمرة داخل علم الجغرافيا هو الصراع الفلسفي والمنهجي حول السيطرة على هذا المجال بين مستخدمي نظم المعلومات الجغرافية (GIS) ونقادهم في الجغرافيا البشرية . نظم المعلومات الجغرافية (ينظر الفصل 23) هي مجموعة من الأدوات لتحليل البيانات الكمية ، والتي نشأت من المدرسة التجريبية (ينظر الفصل 2) . في أوائل التسعينيات ، كانت هذه النظم موضع نقاش . واجهت نظام المعلومات الجغرافية انتقادات حادة بسبب ما يُنظر إليه على أنه نزعة إيجابية متأصلة فيها (لاك، 1993) . وصف بيتر تايلور نمو نظام المعلومات الجغرافية بأنه "تحول تقني" ، يتميز بـ "الانحراف عن الأفكار إلى الحقائق" ، و "دراسة الجغرافيا سطحية" ، و "عودة إلى أسوأ أنواع الإيجابية ، أي التجريبية البسيطة" (1990: 212).

انتقد النقاد بشكل خاص باحثي نظام المعلومات الجغرافية لاستخدامهم غير المبرر للمناهج العلمية لدراسة الظواهر الاجتماعية ، مدعين أن نظام المعلومات الجغرافية "لا يتسع للتحليلات الأقل عقلانية والأكثر حدسية للقضايا الجغرافية ، وأن منهجه ، من حيث التعريف ، يستبعد نطاقاً واسعاً من البحث" (شومان، 2000: 577). كما انتقد الباحثون في نظام المعلومات الجغرافية لافتراضهم أن جميع البيانات جاهزة (تايلور وأوفرتون، 1991) بدلاً من الاعتراف بأن البيانات تُنشأ دائماً وأن هناك علاقات اجتماعية في إنتاجها (أي أن معظم البيانات تأتي من الدولة ، وهناك تباين بين المعلومات المتاحة للبلدان الغنية والفقيرة) .

طالب نقاد نظام المعلومات الجغرافية أيضاً مستخدميهم بالتحمل المسؤولة عن ادعائهم الحياد الفكري في تفسير البيانات ، وغياب اهتمامهم الأخلاقي ببعض تطبيقاته . أشار نيل سميث (1992: 257) على سبيل المثال إلى أن حرب العراق 1990-1991 كانت "أول حرب واسعة النطاق تستخدم نظام المعلومات الجغرافية" ، حيث استخدمها الطيارون وقادة الدبابات والقتال الذكية ، مما غير طريقة إيصال الحروب الحديثة . كما لاحظ أن نسبة كبيرة من خريجي الجغرافيا الأمريكيين الذين يدرسون نظام المعلومات الجغرافية ينتهي بهم الأمر في وظائف عسكرية - مشيراً إلى أن وكالة الخرائط الدفاعية الأمريكية هي أكبر جهة توظيف لخريجي الجغرافيا .

اقترح دينيس وود (1989) أن أنظمة الكمبيوتر تساهم في الموت ليس فقط من خلال استخدامها العسكرية ولكن أيضاً من خلال دورها في صناعة السيارات ، مشيراً إلى أن حوادث السيارات تقتل أكثر من أي سبب آخر في الولايات المتحدة . انتقد آخرون أيضاً قلة تمثيل المجموعات المهمشة في هذه التقنية ؛ وسألوا عن الدوافع التجارية وراء تطوير نظام المعلومات الجغرافية ؛ شكك البعض في الجانب الأخلاقي لنظام المعلومات الجغرافية ، مشيرين إلى أن الفرص التي توفرها هذه التقنية لمراقبة الأفراد قد تهدد خصوصيتهم وحررياتهم ؛ ودعوا علماء الجغرافيا إلى تحمل مسؤولية تطوير وتطبيق نظام المعلومات الجغرافية (بيكلس، 1993؛ شيبارد، 1993).

رد مؤيدو نظام المعلومات الجغرافية في مراحل مختلفة من النقاش ، مؤكدين أنه أداة قوية تزيد من قدرات علماء الجغرافيا التحليلية ، وأن هذا المجال العلمي بحاجة إليه (جودتشايلد، 1991). اتهم دويسون (1993) علماء الجغرافيا الثقافية بعدم معرفتهم بتطبيقات نظام المعلومات الجغرافية ، ونقد استقباله السلبي داخل هذا المجال العلمي ، مقابل استقباله الإيجابي خارجه . اقترح أوبنشو (1991: 621) وجود "جهل حقيقي وتحيز خاطئ متعمد" تجاه نظام المعلومات الجغرافية داخل علم الجغرافيا . بالنسبة لأوبنشو، يمثل نظام المعلومات الجغرافية جوهر علم الجغرافيا - الأساس الذي يجمع هذا المجال العلمي . وادعى أن نظام المعلومات الجغرافية يوفر "إطاراً شاملاً ومتكاملاً قادراً على دمج جميع مستويات الجغرافيا في الماضي والحاضر والمستقبل" (1991: 628). ويقول: "قد يتمكن عالم الجغرافيا في المستقبل من تحليل شبكات الأنهار على المريخ يوم الاثنين ، ودراسة مرض السرطان في بريستول يوم الثلاثاء ، وتصوير الطبقة الفقيرة في لندن يوم الأربعاء ، وتحليل تدفق المياه الجوفية في حوض الأمازون يوم الخميس ، وإنهاء الأسبوع بتصميم نماذج لعمليات التسوق في لوس أنجلوس يوم الجمعة" (1991: 624).

وكثير من المناقشات الأكاديمية في هذا المجال ، فقد اتسمت هذه المناقشة بتجاوز كل من النقد والمؤيدين لنظام المعلومات الجغرافية في ادعاءاتهم ، ووصفوا وجهات نظر الطرف الآخر بألفاظ نابية (شومان، 2000) . وفي سعي أوبنشو (1991) لتضخيم أهمية نظام المعلومات الجغرافية ، كان عدوانياً تجاه منتقديه . اتهمهم بـ"تضليل" الأجيال الشابة ، وانتقد "خوفهم وقلقهم" ، واتهمهم بـ"الحسد" ، ووصفهم بـ"المحدودين" . وصفهم بالنقص في الذكاء ، وفي موقف أكثر استفزازاً ، وصمهم بصفات تُشير إلى إعاقة معرفية ، ووصفهم بـ"المحدودين معرفياً" (1991: 621-624). بالنسبة لأوبنشو، لم يكن نقد نظام المعلومات الجغرافية نابعاً فقط من مخاوف منهجية ، بل كان مدفوعاً برغبة في الحفاظ على مكانتهم في المجال . واقترح أن مع ازدياد استخدام نظام المعلومات الجغرافية ، "قد تفقد الأساليب البحثية النوعية التقليدية أهميتها" (1991: 622). رد سميث (1992: 258) ساخراً من "الطموحات المبالغ فيها" لمستخدمي نظام المعلومات الجغرافية وإصرارهم على الأسلوب التقني ، مع تجاهل الأبعاد الفكرية والنهج الأخرى .

هذه المناقشات الحادة والمحملة بالتوتر التي ميزت نقاش دور نظام المعلومات الجغرافية في الجغرافيا في النصف الأول من التسعينيات ، تحولت إلى نقاش أكثر هدوءاً حول الأثر الاجتماعي لهذه التقنية وتأثيرها على المجال (شومان، 2000) . مع ازدياد الطلب على الباحثين في نظام المعلومات الجغرافية (وتراجع فرص العمل في الجغرافيا الثقافية) ، انتشرت هذه التقنية في مجالات أخرى والقطاعين العام والخاص . لذلك ، يرى شومان أن نظام المعلومات الجغرافية أصبح جزءاً لا يتجزأ من الجغرافيا ، وبدأ النقد بالاعتراف بأهميته ، ووجهوا جهودهم نحو إعادة النظر في نظام المعلومات الجغرافية من منظور ما بعد البراغماتية . شكل هذا مرحلة تفاوض بين مستخدمي نظام المعلومات الجغرافية والنظرية الاجتماعية ، لكن شومان لاحظ أن هذا التفاعل تعثر بسبب ضعف التواصل نتيجة عدم معرفة كل طرف بمجال الآخر.

بدلاً من توجيه انتقاداتهم لنظام المعلومات الجغرافية بطريقة يفهمها المستخدمون ، استخدم النقاد لغة النظرية الاجتماعية لوصف عيوب نظام المعلومات الجغرافية ، بينما استخدم باحثو نظام المعلومات الجغرافية لغة التقنية ، مستندين إلى الرياضيات والفيزياء ، لوصف مزاياه . جادل شورمان بأن على النظريين الاجتماعيين ، إذا أرادوا التأثير في استخدام نظم المعلومات الجغرافية ، أن يتعلموا التواصل بلغة هذه التقنية . مع استمرار الانتقادات الموجهة لنظم المعلومات الجغرافية من حيث ارتباطها بالنزعة الوضعية ، بدأ بعض الباحثين في هذا المجال يشددون على أن التقنية نفسها و مستخدميها لا يرتبطون بالضرورة بالنزعة الوضعية ، بل يمكن لنظم المعلومات الجغرافية أن تتوافق مع مجموعة واسعة من المواقف الفلسفية (شورمان و برات، 2002).

ذهب شورمان و برات (2002) إلى أبعد من ذلك ، مؤكدين أن الانتقادات التي تأتي من داخل مجتمع الباحثين في نظم المعلومات الجغرافية قد تكون أكثر فعالية في تشكيل استخدامها من الانتقادات التي يقدمها النظريون الاجتماعيون من خارج هذا المجال ، والذين لا يملكون أي دور في مستقبل هذه التقنية . لاحظت مي بو قوان (2002) ، وهي باحثة نسوية تستخدم نظم المعلومات الجغرافية ، أن النقاش الحاد حول نظم المعلومات الجغرافية ، والذي يقسم بين الأساليب الوضعية / الكمية مقابل الأساليب النقدية / النوعية ، وبين تحليل نظم المعلومات الجغرافية / المساحي مقابل النظرية الاجتماعية / النقدية ، قد أقصى مساهمة الباحثات النسويات في هذا المجال ، وأهدر إمكانية تطوير تطبيقات نظم المعلومات الجغرافية من منظور نسوي . أشارت إلى أن نظم المعلومات الجغرافية يمكن أن تكسر تقسيم الأساليب الكمية والنوعية في الجغرافيا ، لأن البيانات النوعية مثل مقاطع الفيديو أو الصوت والصور والخرائط اليدوية أو الرسومات يمكن دمجها في التقنية ، كما يمكن لنظم المعلومات الجغرافية / تحليل البيانات المساحية أن تستفيد من البيانات التي توفرها الأساليب النوعية مثل المقابلات . بالإضافة إلى ذلك ، أوضحت أن نظم المعلومات الجغرافية يمكن استخدامها بطرق بديلة تتجاوز التطبيقات السائدة ، وتتوافق مع المعارف والسياسات النسوية . على سبيل المثال، استخدمت مي بو قوان (1999، 1999ب، 2000، 2002) نظم المعلومات الجغرافية لرسم وتوضيح مسارات حياة النساء وتأثير القيود المكانية والزمانية على حركيتهن ووظائفهن ، ودراسة المساحات الحياتية المحدودة للأمريكيين من أصول أفريقية .

إن برامج وبيانات نظم المعلومات الجغرافية لا تحدد مسبقاً طرق استخدام هذه التقنية ، بل يمكن لنظم المعلومات الجغرافية أن تنتج العديد من التطبيقات المختلفة . وكما أشارت الباحثة الجغرافية النسوية سارة إلود (2000)، فإن نتائج استخدام نظم المعلومات الجغرافية... لا يعتمد الأمر على التقنية نفسها بقدر ما يعتمد على دور مستخدميها المهم . في دراستها ، أشارت إلى أن تقنيات نظم المعلومات الجغرافية ، من خلال منح الشرعية لجمعية الأحياء ، غيرت ديناميكيات السلطة بين الجماعات المجتمعية والدولة . وفي حديثهما عن كيفية استخدام نظم المعلومات الجغرافية في البحث النسوي ، أوضح كل من شورمان و برات (2002) أن الباحثات الجغرافيات النسويات يستطعن إضفاء الطابع التأملي على نظم المعلومات الجغرافية فيما يتعلق بإنشاء واستخدام وتفسير البيانات المرئية ، وبالتالي التشكيك في الطريقة المنفصلة وغير الشخصية للمعرفة التي تميز ممارسات نظم المعلومات الجغرافية التقليدية .

واقترحا أن على الباحثات الجغرافيات النسويات التفكير في أنواع المعرفة التي يتم استبعادها من تمثيلات نظم المعلومات الجغرافية ، ومناقشة مدى أهمية المعرفة التي تنتجها التقنية بالنسبة للمشاركين في البحث ، وتحديد الفئات التي تعززها أو تضعفها نظم المعلومات الجغرافية ، والوعي بآثارها على حياة الفئات الضعيفة . وخلصا إلى أن الباحثات الجغرافيات النسويات بحاجة إلى تحدي ثقافة الحاسوب المهيمنة على

الرجال وممارسات نظم المعلومات الجغرافية ، وإيجاد طرق لاستخدام تقنيات نظم المعلومات الجغرافية لتعزيز العدالة الاجتماعية .

في منتصف التسعينيات ، نشرت مجلة "الجغرافي الكندي" خطاباً رئيسياً ألقاه بيتر غولد . انتقد فيه الجغرافيا النسوية الراديكالية ، مدعياً أنها "ارتقت بسرعة إلى مرتبة المقدسة ، حيث يسود الإيمان والأيدولوجيا ، بينما لا مكان للعقل" (غولد، 1994: 10) . هاجم غولد اهتمام النسويات الراديكاليات باللغة العنصرية ، متهماً إياهن بالجهل في أصول الكلمات وهيكلها اللغوي . بشكل ضمني ، صرح غولد أن الجغرافيا النسوية تصوّر الرجال ، بمن فيهم هو ، على أنهم "آخرون" (بييك، 1994). وفي دفاعه عن موقفه ، وصف نفسه بأنه من عشاق علم الجغرافيا ، مستندلاً بصور من كتابه "الجغرافي في العمل" (1985) ، الذي يصور هذا العلم على أنه امرأة عارية .

وفي كلمته المنشورة ، انتقد غولد أيضاً الفكر ما بعد الاستعماري ، مشيداً بالاستعمار لنشره مزايا الحضارة مثل "الأمانة الدقيقة في جميع شؤون المحاسبة ... وحسن خدمة الآخرين" (1994: 14) ، بينما اتهم القادة الأفارقة السود بالفساد والاستبداد . وفي الوقت نفسه ، حاول غولد (1994: 10) تجنب انتقادات مواقفه المحتملة ، بالإشارة إلى أن بعض أصدقائه المقربين من السود . ردت عليه الجغرافيتان النسويتان ليندا بيبك (1994) وجانيت مومسن (1994). استنكرت بيبك (1994) تصوير غولد (1994) للمرأة ، والأثر السياسي للرموز التي استخدمها .

كما أشارت بيبك إلى أن إعادة تقييم غولد للاستعمار يمكن تفسيره بشكل مختلف ، مشيرة إلى عدم نزاهة الأنظمة الاستعمارية مثل حكومة المملكة المتحدة في غيانا البريطانية ، التي ، كما أشارت ، تلاعبت في الانتخابات لمدة 29 عاماً ، وتركت البلاد مع أحد أدنى مستويات الناتج المحلي الإجمالي للفرد في العالم . انتقدت بيبك غولد لادعائه موضوعية مطلقة ، في ما وصفته بـ "نظرة رجولية متزمتة" (1994: 203). وخلصت إلى أن : "يدّعي البروفيسور غولد أن الوقت قد حان لنصبح أكثر نضجاً... المشكلة هي أن التيار الجديد في الجغرافيا الأكاديمية ، وهو مجموعة من المفكرين (الذكور فقط) الذين يشير إليهم غولد مراراً ، لديهم عادة عدم النضج" ، إلى "القدامى" في هذا المجال . ربما أن الأوان ليس فقط للنمو والتقدم ، بل وأن يتخلّى بعض هؤلاء "القدامى" عن موقفهم المتشدد. وهذا أمرٌ يسعدني . (1994: 206)

وبينما يمكن عد هذا النقاش في مجلة "الجغرافي الكندي" مجرد خلاف شخصي ضمن سياق النقاش الأكاديمي ، إلا أن الصراع قد يتجاوز هذا المستوى في بعض الأحيان . يرى مايكل دير (2001) أن الصراعات بين الجغرافيين قد تصل إلى حد الكراهية . ويستند في ذلك إلى تعريف الكراهية في المعجم بأنها "شعور بالعداء أو السلبية تجاه الآخرين" (2001: 2) . وبناءً على هذا التعريف ، يروي دير كيف تعرض للكراهية في مجال الجغرافيا ، من خلال وصمه بألقاب سلبية مثل "ليبرالي" و"ماركسي" و"ما بعد حديث" ، بالإضافة إلى إساءات أكثر صراحة مثل "مجنون" و"متطرف" و"مخرب" و"خارج عن القانون".

وبخصوص ردود الفعل على مقالته حول ما بعد الحداثة والحضارة (دير وفلستي، 1998) ، يتذكر كيف وصفه أحد المعلقين بأنه مصاب بـ "الإيدز الأكاديمي" (2001: 4) . كما استخدم معلقون آخرون تعبيرات مهينة وصفت عمله ، بالإضافة إلى التهديدات باتخاذ "إجراءات غير ودية" ضده (2001: 5). ويؤكد دير أن هذه التجارب مع "المتشددين" و"المحاربين في حروب الثقافة" - بالإضافة إلى حالات الكراهية والإرهاب التي تعرض لها مايكل ستوربير وجيل فالنتين - قد أوضحوا لديه دور الشخصية في السياسة الأكاديمية . ويشير دير إلى أن الكراهية الشخصية غالباً ما تكون نتاج خصومات مهنية ، مثل الحسد بسبب التفاوت في السمعة ، أو توزيع الموارد والمسؤوليات والسلطة ، وحتى الشعبية لدى الطلاب داخل الأقسام الأكاديمية .

يشكك الكاتب في صمت علماء الجغرافيا تجاه هذه القضايا ، ودور الشبكات المهنية في بث الكراهية . ويؤكد دير على ضرورة أن يُعَلِّم علماء الجغرافيا طلابهم أهمية الود والاحترام في الحوار الأكاديمي ، **وأن يطوروا ثقافة النقد البناء** . ويقترح أن يركز الأكاديميون على إبراز إيجابيات بعضهم البعض بدلاً من التركيز على عيوبهم ، وأن يتقبلوا التنوع (في الأفكار والمشاريع والتوجهات الشخصية) بدلاً من رفضه . ويختتم دير مقاله مؤكداً أن على علماء الجغرافيا مسؤولية أخلاقية في التعامل مع زملائهم باحترام وود . في رده ، يقترح فولفجانغ ناتر (2001) ثلاثة اقتراحات عملية لتحقيق ذلك :

أولاً، ينصح بأن يتدخل علماء الجغرافيا عند سماعهم انتقادات غير عادلة لزملاء لهم ، وأن يرفضوا بشدة أي إساءة شخصية .

ثانياً، ينبغي أن يشجع علماء الجغرافيا ، بوصفهم محكمين ومحررين ، الكتابة العلمية ويحفزوا على الحوار الهادف .

ثالثاً، يحتاج هذا المجال إلى تطوير وتطبيق قواعد السلوك المهني .

بهذه الطريقة، يمكن لعلماء الجغرافيا الحفاظ على مستوى من الاحترام في نقاشاتهم اليومية حول محتوى المجال وحدوده وتوجهاته ، دون أن يفقدوا حماسهم أو شغفهم بالبحث .

التمرينات

- 1) عرف المصطلحات الآتية ، وحدد باختصار أهميتها في علم الجغرافيا البشرية : المادية الجدلية، السيطرة الذكورية ، نظرية المعرفة ، الوجودية ، الفلسفة الظاهرية ، النوع الاجتماعي.
- 2) تتميز نظريات البناء الاجتماعي بجاذبيتها كمنظور وجودي ، لكن استخدامها كأساس للأبحاث يثير الكثير من المشكلات . ناقش هذا.
- 3) يركز علم الجغرافيا البشرية على أفكار وأفعال "العامة" فقط ، مما يجعله رومانسياً سطحياً وعملياً ، دون عمق . قيم هذا التقييم لعلم الجغرافيا البشرية.
- 4) انتقل علم الجغرافيا البشرية من المطلقيات في المنهجية الوضعية إلى النسبية في ما بعد الحداثة . ناقش هذه الفكرة ، وحدد الإيجابيات والسلبيات في هذا الانتقال.
- 5) أوضح أهم نتائج الثورة الكمية على علم الجغرافيا البشرية.
- 6) ما هو التطور الجذري في المناهج الماركسية لعلم الجغرافيا البشرية في ستينيات وسبعينيات القرن الماضي؟
- 7) نحتاج إلى دراسة العالم البشري من خلال مواد عملية بسيطة ومتنوعة ، بدلاً من الاعتماد على النظريات العامة" . (بي. كلوك، سي. فيلو، دي. ساذر، 2003، منهجية علم الجغرافيا البشرية، لندن: تشابمان). إلى أي مدى توافق على هذا النهج لدراسة الجغرافيا البشرية ؟
- 8) قيم دور الفاعل في نظرية الشبكات الاجتماعية .
- 9) أوضح الانتقادات ما بعد الاستعمارية للمفهوم . ما هي آثار ذلك على أبحاث الجغرافيا البشرية ؟
- 10) اختر جغرافياً بارزاً ، وادرس مسيرته المهنية وأعماله . كيف يعكس عمله مناهج فلسفية أو منهجية معينة في الجغرافيا ؟
- 11) موضوع بحثك هو الهجرة . بالنسبة لكل فلسفة مذكورة في الجزء الأول من هذا الكتاب ، حدد كيف يمكن لجغرافي أن يدرس هذا الموضوع . ما أوجه الشبه والاختلاف بينها ؟